الفصل الأول

أهمية الحجاز في صدر الإسلام

دور أهل الحجاز في تثبيت الإسلام ودولته وتوسيعها:

للحجاز مكانة متميزة في تاريخ الإسلام ودولته، ففيه ظهر الإسلام وتثبتت أركان دولته واستقرت قاعدته، وفيه عاش الرسول ﷺ كل حياته وقضى الخمسين سنة الأولى من عمره في مكة حيث نزل عليه الوحي وبدأ الدعوة للدين الإسلامي، ثم هاجر إلى المدينة التي أصبحت قاعدة دولة الإسلام ومركز المسلمين، ومنها بدأت الدولة تتوسع حتى شملت الحجاز ومعظم جزيرة العرب. وفي الحجاز تقع الكعبة التي يتوجه إليها المسلمون من كافة أرجاء الأرض يومياً في صلواتهم، وفيه مكة التي يحجون إليها، كما أن فيه المدينة التي تضم قبر الرسول ﷺ والمعالم المتصلة بالإسلام الأول. ومع أن عدداً من العرب خارج الحجاز أسلموا في هذه السنين الأولى وأن الرسول كوّن علاقات سياسية مع قبائل تقطن خارج الحجاز، إلا أن السلطان الفعلي لدولة الإسلام لم يخرج عن الحجاز إلا بعد فتح مكة، أي في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته. وحتى في هذه الفترة التي توسعت فيها الدولة الإسلامية فشملت الجزيرة، فإن العماد الأول للإسلام كان مرتكزاً على الصحابة الذين أسلموا مبكراً، فكانوا أكثر الناس تشبعاً بمبادئه وروحه، وبذلك صاروا المصابيح التي تقتدى لهدي الإسلام ومعرفته. وكان منهم الجيش الذي يعتمد عليه الرسول ﷺ في الحفاظ على دولة الإسلام وتوسعها.

وقد ظل أهل الحجاز على الإسلام بعد وفاة الرسول، فلم يرتد أحد من أهل المدينة ومكة، كما أن معظم القبائل الحجازية ظلت على الإسلام، ولا

ريب في أن موقف أهل الحجاز هذا كان من الدوافع التي حملت الخليفة الأول أبو بكر الصديق على الاعتماد على الحجازيين في القضاء على حركات الردة وإعادة سيطرة الإسلام على الجزيرة وتثبيت سلطانه عليها. ولا بد أن الإيمان العميق لأهل الحجاز هو العامل الرئيسي في عدم ارتدادهم وفي مساهمتهم في القضاء على حركات الردة.

ولما خرجت الجيوش الإسلامية لفتح الأقاليم المجاورة للجزيرة بعد إتمام السيطرة على الجزيرة، ظل أهل الحجاز العماد الأول للجيش، لأن أبا بكر رفض إشراك المرتدين في جيوش الفتوح، وقصر اعتماده على القبائل العربية التي لم ترتد، ومن الطبيعي أنه كان من ضمن القبائل التي اعتمد عليها أبو بكر القبائل العربية التي كانت تقاتل الفرس والروم ثم انضمت إلى الإسلام وأصبحت من الحركات الإسلامية.

ولا ريب في أن الذين ساهموا في «الأيام» ومقاتلة الفرس والروم كانوا يخدمون أهداف الدولة في تثبيت دعائم الإسلام ونشر سلطانه، ولكن نظراً لإسلامهم الحديث وقلة اتصالهم بالرسول والصحابة في المدينة فإن تشبعهم بروح الإسلام ومبادئه كان يتطلب وقتاً غير قصير.

إن الجيوش الإسلامية التي خرجت من الجزيرة في زمن أبي بكر الصديق للفتح وتوسيع دولة الإسلام، كان كل قوادها من أهل الحجاز، ومن أهل بكة بالذات، بما فيهم من أسلم بعد الحديبية، ومن أسلم بعد فتح مكة.

أهل الحجاز في الأمصار:

ولما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة أباح للمرتدين الاشتراك في الجيوش الإسلامية، فازداد عدد الجيش، وقلت نسبة أهل الحجاز فيه، وقد أظهر المنضمون الجدد حماساً في القتال وإخلاصاً للدولة، وأخذ عددهم يتزايد تدريجياً، ويقوى تشربهم بمبادىء الإسلام وتفهمهم لروحه وإذا كانت نسبة أهل الحجاز قد انخفضت بتزايد عدد هؤلاء، فإن عدد أهل الحجاز لم يقل، وظلوا

يعملون في كافة جبهات القتال من العراق والشام أو مصر، وقد استقر هؤلاء الحجازيون في مختلف الأمصار التي شيدها العرب، حتى لا تكاد تجد مصراً ليس فيه من أهل الحجاز عدد. وقد اهتمت كتب التاريخ والتراجم بذكر أسماء وأحوال الصحابة الأولين خاصة من البدريين أو المهتمين بالشؤون الفكرية. ولا ريب في أن هؤلاء بعض وليس كل من سكن الأمصار، وأن عدداً آخر من أهل الحجاز أكثر ممن ذكرتهم المصادر هاجروا إلى الأمصار واستوطنوها، ولكن المصادر لم تذكر أسماءهم، ولا بد أن الصحابة والتابعين الذين استوطنوا الأمصار الجديدة احتفظوا مدة غير قصيرة بعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية مع وطنهم الأم في الحجاز.

وقد سكن الحجازيون من حيث العموم في كل مصر بالقرب من المسجد الجامع ودار الأمارة، أي في قلب كل مصر وفي أهم منطقة منه، وهذا مما لا بد أن يتيح فرصة للتأثير في السياسة أكثر مما لمن يسكن في الأطراف، وكان منهم عدد من الصحابة الأولين من أهل مكة والمدينة الذين اعتنقوا الإسلام في وقت مبكر وتشربوا مبادئه وتعاليمه، ولكن كثيراً من أهل الأمصار اعتنقوا الإسلام متأخراً، وكان معظمهم من الأعراب الذين يدل وصف القرآن لهم على تأخر تشبعهم بالروح الإسلامية فإن الأخيرين كان عددهم كبيراً في الجيش.

أما الصحابة الأول فكانوا أكثر تشبعاً بالروح الإسلامية، وأكثر انصهاراً مع الإسلام والرسول والخلفاء، والذين حملوا العبء الأكبر في الغزوات والحروب الأولى. ولكنهم احتفظوا بمكانة خاصة في الدولة وفي المجتمع الجديد، فكان الخلفاء يولونهم احتراماً خاصاً ويستشيرونهم ويسمعونهم، وهم بسبب طول اتصالهم بالرسول ﷺ وقربهم منه أكثر تفهماً لروح الإسلام، وسلوكهم أقرب إلى متطلبات الإسلام، وظل أكثرهم يقيم في الحجاز، وقد أكسبهم ذلك مكانة خاصة في الأمصار وفي المجتمع الإسلامي. وتتضح هذه المكانة مما قرر لهم من عطاء عال، وكذلك من المكانة الخاصة التي وضعتها لهم كتب الطبقات، وخاصة كتاب ابن سعد، غير أن عدد هؤلاء الصحابة في الأمصار كان قليلاً،

فقد بقي أغلبهم في المدينة ولم يهاجر منهم إلا عدد قليل، ولدينا إشارات عن عدد من استقر منهم في الأمصار فقد كانوا في البصرة حوالي سبعين وفي الكوفة حوالي ٣٠٠.

ظل معظم الصحابة يقيمون في الحجاز، ويمارسون نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي والفكري، وكانوا يحيطون بالخليفة فيشيرون عليه، ويقدمون له الاقتراحات، ويساهمون في توجيه السياسة العليا الإسلامية، ومن المعلوم أن آراءهم وأفكارهم هي مزيج من خبراتهم المستمدة من أحوال الحجاز، مع التعديلات التي أدخلها الإسلام، وحصيلتها تعبر عن روح الإسلام التي سادت في الدولة الجديدة وميزته بسماته الخاصة المعروفة.

مكانة أهل الحجاز في زمن الخلافة الأموية:

ولما انتقل مركز الخلافة من المدينة إلى دمشق في عهد الأمويين، لم يفقد الحجازيون تأثيرهم كلياً لأن الخلفاء الأمويين هم من أهل الحجاز، فإن معاوية مؤسس الدولة الأموية هو ابن أبي سفيان زعيم مكة حتى الفتح الإسلامي، وأخو أم حبيبة زوجة النبي، كما أن عدداً من الخلفاء الأمويين كمروان بن الحكم، وابنه عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز كانوا قد تولى كل منهم إدارة الحجاز أمداً من الزمن قبل توليه الخلافة، وقد ساعدت هذه الولاية على اطلاعهم على أحوال الحجاز، وتثبيت صلاتهم مع عدد من رجالاته، وإلى تفهمهم وجهات أهل الحجاز وتأثرهم بنظرتهم مما كان له أثر في توجيه الإدارة. ثم إن الحجاز زاره عدد من الخلفاء الأمويين، إما في زمن خلافتهم أو قبل ذلك، وكان وجود مراكز الحج فيه عاملاً كبيراً في هذه الزيارات التي لم يَحْظَ بمثلها إقليم آخر من أقاليم الدولة. ومع أن هذه الزيارات كان غرضها الرسمي والرئيسي هو الحج إلا أنها يسرت اطلاع الخلفاء الشخصي على أحواله وعلى تقوية الصلة بأهله. ولا يخفى أن عدداً غير قليل من رجال الحجاز كانوا يفدون على بلاط الخلافة الأموية في دمشق لأغراض مختلفة فيزيدوا من الصلة الوثيقة بين الحجاز والبلاط، ولا بد أن لآرائهم وأفكارهم وملاحظاتهم أثرٌ في الخلفاء،

والواقع أنه حتى الذين وصموا الخلفاء الأمويين بالابتعاد عن روح الإسلام وتعاليمه لم ينادوا بأن الأمويين ابتعدوا عن أهل الحجاز أو جفوهم.

لقد حدث في الحجاز عدد من الثورات ضد الخلافة الأموية، كثورة أهل المدينة ضد يزيد بن معاوية وحركة عبد الله بن الزبير التي امتدت من زمن يزيد إلى زمن عبد الملك، كما أن فرع العنابس من الأمويين الذي كان مقيماً في الحجاز لم يكن على وئام مع الخلافة الأموية، يضاف إلى ذلك ظهور بعض الكتل المناوئة للأمويين في الحجاز، إلا أن هذه الأحداث لم تكن ذات تأثير عميق في جعل الحجاز يقف عموماً موقف المعادي للأمويين فقد بذل الخلفاء جهوداً في إضعاف أثر هذه العوامل، بالاتصالات الشخصية، والمعاملة الطيبة، وإغداق الهبات، والعناية بأمر العطاء، فكان كل ذلك من عوامل هدوء الحجاز وعدم قيام أهله بأعمالٍ أو حركاتٍ قطرية مناوئة للأمويين.

وقد ساعد حصر الأمويين الخلافة في أسرتهم إلى تثبيت الفكرة التي أصبحت كالعقيدة بين الناس وهو أن الخلافة في قريش ولا يمكن أن تكون في غيرهم.

إن أثر الحجازيين في الخلفاء الأمويين تمتد آثاره إلى نطاق السلطات العملية التي كان يمارسها الخليفة، وهي وضع الخطوط العامة للسياسة واختيار الولاة للمناصب الرئيسة في قيادة الجيش وإدارة الأقاليم. ومع أن تعيين ومراقبة وعزل هؤلاء الولاة بيد الخليفة، إلا أنهم كانوا يتمتعون بسلطات عملية واسعة في إدارة ـ الأقاليم أو المدن التي عينوا عليها طيلة مدة ولا يتهم، فكانوا المسؤولين الفعليين عن الإدارة والتنظيمات التي في أقاليمهم والواقع أنهم كانوا يطبقون التنظيمات التي تطلبها الخلافة، ولكنهم في كثير من الأحيان كانوا يقترحون على الخلافة إدخال نظم أو تعديلات تعم الدولة، ثم إن دورهم في تطبيق الأنظمة هو دور كبير من الناحية الواقعية.

وكانت معظم الوظائف الكبيرة، وخاصة ولاية الأقاليم وقيادة الجيوش

تسند إلى رجال من أهل الحجاز ولا بد أن هؤلاء الولاة كانوا يقربون أهل الحجاز ولا يبخلون عليهم بالرعاية والعناية، وبذلك كان للحجازيين أثر يفوق أثر رجال الأقاليم الأخرى في إدارة الأقاليم ولهم مكانة خاصة بما لهم من صلة بالولاة ولعل من مظاهر ذلك أن الحجازيين في معظم الأمصار الإسلامية كانت خططهم وبيوتهم التي يقيمون فيها قرب المسجد الجامع ودار الإمارة، وكل هذا يظهر مكانتهم المتميزة في الأمصار ودورهم الخاص في الإدارة والتوجيه.

أثر الحجاز في تنظيم الإدارة الإسلامية:

كان الحجاز عند ظهور الإسلام مكوناً من مجموعات من مدن وقرى ومناطق تستوطنها عشائر، كل منها مستقل وله تنظيماته الخاصة، ولا توجد دولة تشمل إدارتها وتنظيماتها هذه المدن والقرى، ولدينا معلومات واسعة نسبياً عن مكة والمدينة، ويمكننا أن نحدد تنظيمات العشائر التي يرجح أن تنظيماتها لم تختلف عن بقية العشائر العربية في المظاهر العامة.

إن التنظيم الذي كان سائداً في مكة عند ظهور الإسلام ترجع أصوله وأسسه إلى قصي وكان قد تَربّى وترعرع عند أخواله من قضاعه في أطراف بلاد الشام ثم قدم مكة وانتزع السيادة فيها، وأعاد تنظيم سكانها وأموالها وإدارتها وكان التنظيم قائماً على أسس قبلية، فكانت عشائر مكة مقسمة إلى قسمين رئيسيين: الظواهر والبطاح، وكل منهما يضم عدة قبائل متباينة في مراكزها ولكل منها ناد، أي مجلس، وجعل لمكة مجلساً عاماً يجتمع بدار الندوة، أما الوظائف الإدارية فقد وزعها على أولاده، كان تنظيم قصي مقصوراً على مكة والقرى القريبة منها وقد ارتبط قصي وأولاده مع معظم قبائل الحجاز بروابط المصاهرة والزواج، وإنهم عقدوا إيلافات مع القبائل الواقعة على طريق تجارتهم، إلا أن ذلك لم يصل حد محاولة تكوين دولة موحدة أو اتحادية. وقد وصلتنا عن التنظيم الذي كان قائماً تفاصيل، وظل قائماً إلى أن سادت دولة الإسلام.

أما المدينة فكان فيها عدد كبير من اليهود، وكان معظم أهلها يشتغلون بالزراعة، وهم مكونون من عدد من العشائر المتداخلة، ولكل منها رئيس له نفوذ

على أفراد عشيرته . غير أنه لم تكن فيها إدارة مركزية عامة كالتي كانت في مكة، وكثيراً ما كانت عشائر المدينة تتقاتل فيما بينها مما أدى إلى اضطراب الأمن خاصة وأنها لم تكن حرماً مقدساً أو مركزاً للحج .

ويتضح مما تقدم أن الحجاز عند ظهور الإسلام لم يكن فيه حكومة يشمل سلطانها الإقليم كله، وإنما كانت فيه مجموعات من المجتمعات المستقلة، من عشائر ومدن، ولعل لكل منها تنظيم خاص بإدارتها، ويتجلى من المعلومات الواسعة نسبياً عن مكة والمدينة أن التنظيم قبلي بسيط، فليس في أي منها عدد من الموظفين أو دوائر الإدارة، وليست فيها شرطة للأمن أو جيش خاص يتطلب الإنفاق عليه، كما أنه لم تكن في أيّ منها أبنية للإدارة والاحتفالات، فمؤسسات الإدارة محدودة، ونفقاتها قليلة جداً، والحاجة إلى الضرائب ضعيفة، وكانت المسؤولية في حفظ الأمن والدفاع جماعية تقوم على شعور الفرد بواجبه نحو المجتمع الذي يعيش فيه .

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وتكونت دولة الإسلام التي ظلت تتوسع أكد على فكرة السيادة العليا أو السلطة العامّة، وعني بتنظيم إدارة الحرب والسلم، ولم ينشىء إدارة معقدة أو وظائف كثيرة، ولم يستخدم موظفين ثابتين قد يتطلب تعيينهم دفع رواتب لهم، فكان المقاتلون ينفقون على أنفسهم ما يحتاجونه من معاش وسلاح، ولم يشيد أبنية عامة فخمة، فكانت نفقاته قليلة، تقتصر على متطلباته المعاشية البسيطة، وعلى ما ينفقه على المعوزين من الصحابة المهاجرين الذين هم من أهم ركائز الدولة الجديدة وقد سدت حاجاتهم مما كان ينفقه المؤمنون طوعاً كواجب ديني أمر به القرآن الكريم، ولا بد أن عمق شعورهم الديني كان يدفعهم إلى السخاء في البذل، خاصة وأن العرب يقدرون السخاء والبذل، ولم يجر تنظيم دقيق للإنفاق حتى السنة العاشرة للهجرة عندما تحدد نصاب الزكاة وتنظيم الإنفاق على أسسٍ «قانونية» .

ولا ريب في أنه جاءت الرسول ﷺ مصادر للموارد من جبايات الأراضي التي صارت للمسلمين بعد طرد اليهود من المدينة، وكذلك من أخماس الغنائم، ومما كانت تدفعه بعض العشائر المسلمة، ومقدار ذلك غير كبير. أما

أساليب الجباية فلم تكن معقدة، ففي المدينة كانت الجبايات تسلم له مباشرة، أما في البادية فكان بعض رؤساء العشائر يأتون إليه بصدقاتهم، ولكنه في السنتين الأخيرتين من حياته كان يرسل مصَدِّقين إلى بعض العشائر للجباية.

ويجدر أن نذكر أن الرسول ﷺ ركز عنايته بالعقائد والجوانب الروحية والخليفية بالدرجة الأولى، وأنه كان يتبع أساليب متعدده في تقدير وطريقة الجباية على الأراضي والمواشي وذلك تبعاً للأحوال والظروف، وعندما فرض نصاب الزكاة في السنة العاشرة للهجرة، وكان هذا النصاب حوالي ١ / ٤٠ على العين من الذهب والفضة، وكذلك على المواشي، وحوالي ١٠٪ على بعض أصناف المزروعات.

ولما توسعت الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ وضعت أقاليم واسعة وغنية، ذات نظم معقدة تكونت نتيجة خبرات طويلة وواسعة. فالعراق مثلاً كان من أغنى الأقاليم ويعتمد في ثروته على الزراعة التي تتطلب إدارة معقدة لتنظيم شؤون الري والزراعة والجباية من تلك الأراضي مما يتطلب صلاحيات واسعة لحكومة قوية تستطيع حشد عدد كبير من العمال لحفر الترع وإقامة السدود وصيانتها والمحافظة عليها، وهي بدورها تتطلب معرفة متقنة بانحدار الأرض ومستواها وتعرجها، كما تتطلب معرفة بتوازن السوائل ومواد البناء والتربة، لتأمين تخزين المياه للصيف واتقاء أخطار الفيضانات، والاستفادة من الماء بأحسن وسيلة ممكنة، وكل هذه لا يمكن أن تتم إلا بأعمال جماعية ليفيد منها عدد كبير، وهذا بدوره يتطلب حكومة قوية تستطيع أن تهيمن وتنظم الأمور وتمنع التجاوزات والتعديات التي تؤدي إلى الفوضى والاضطراب.

ثم إن الزراعة في العراق خاصة هي أساس حياة المجتمع والحكومة، والمجتمع يعتمد في معاشه وصناعته على المنتوجات الزراعية للمنطقة المجاورة، كما أن الحكومة كانت تعتمد في مواردها المالية على ما تجبيه من الزراعة، لذلك لم يكن بالإمكان ترك أمور الزراعة على أهواء الأفراد من الزراع ورغباتهم، للحفاظ على مبدأ العدالة التي هي قوام الحكم والتي يقتضي تطبيقها حرية العمل في الملكية الفردية من بيع ورهن وهبة وتوريث وتصرف

مطلق، ولذلك اعتبرت الأراضي الزراعية فيئاً وملكاً عاماً يعمل فيها الفلاح جبراً وفق الشروط التي تضعها السلطة التي تمثل المصلحة العامة، فالدولة هي التي تقرر نوع المزروعات ومقدار الضريبة؛ وقد أدرك الخليفة عمر بعد نظره أهمية الاستمرار على هذا المبدأ لمستقبل الدولة والمجتمع، فاعتبرها فيئاً يدفع الفلاح عنها الخراج الذي تقرره الدولة، وهذا تختلف أحكامه وإدارته كلياً عما كان سائداً في الحجاز وجزيرة العرب، وقد طبقت مثل هذه الأنظمة على الأقاليم خارج جزيرة العرب.

وقد امتلك عدد من المسلمين، وخاصة أهل الحجاز، أراضي في الأقاليم التي ضمت إلى دولة الإسلام، وكان بعض هذه الأراضي مواتاً لا تُزْرع فأحيوها، أو مما كانت صوافي لا مالك لها فاقتنوها، وصاروا يدفعون عليها العشر، وكانت تسمى أراضي العشر، وكانت ملكاً صرفاً لأصحابها غير أن بعض العرب، وخاصة المتنفذين، أخذوا يمتلكون أراضٍ خراجية، ويدفعون عنها العشر وفقاً لما كان سائداً في الحجاز، وكان لهذا تأثير في إنقاص مقدار الجباية مما يهدد موارد الدولة، وحمل هذا الخليفة عمر بن عبد العزيز على إصدار قرار بإبقاء الخراج على الأراضي الخراجيّة حتى إذا امتلكها العرب، ولكنه أبقى العشر على ما يحييه العرب المسلمون من أراضي الموات وكان معظم هذه الأراضي قرب الأمصار التي أنشأها العرب في الأقاليم.

دور أهل الحجاز في النشاط التجاري وتنظيمه:

كان الحجاز عند ظهور الإسلام مركز نشاط تجاري واسع، وخاصة في مكة. ومن مظاهر سعته وعمقه كثرة المجازات المتعلقة بالمعاملات التجارية من القرآن الكريم كالحساب والميزان والقرض والإجارة والعمل. وتُظهر المعلومات المتوفرة في كتب التاريخ جوانب من الحياة التجارية المعقدة كالسجلات والصحف والكتب وطرق الحساب وتدوينها، وعمليات الإقراض ومتطلباتها، والشركات واستخدام الأُجراء والوكلاء، وهذه المعاملات لم تكن محليه ضيقة، وإنما امتدت إلى الدول والأقاليم التي في جزيرة العرب وخارجها، فهي وثيقة

الصلة بالتجارة العالمية، وهي ترجع إلى أزمنة قديمة، ومن مظاهرها الفصول الطويلة التي خصصتها كتب الفقه للمعاملات التجارية، ويتجلى فيها عند ظهور الإسلام الشمول والدقة والسمة العالمية.

وقد أقر الإسلام العمل بالتجارة وشرعية أرباحها وشجع على الكسب الحلال واعتبر ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾. وكان الكثير من الصحابة الأولين يعملون في التجارة بمكه ثم في المدينة بعد الهجرة، وجنى بعضهم منها أرباحاً، فلما توسعت الدولة الإسلامية مد أهل الحجاز وخاصة أهل مكة نشاطهم التجاري إلى مختلف أقاليم الدولة، وجنى بعضهم من هذا النشاط أموالاً طائلة. ولا بد أن تأثيرها في الخلافة والولايات كان كبيراً في توجيه سياسة الدولة نحو تشجيع التجارة ونموها.

وقد تأثر الحجاز من توسع النشاط التجاري، فازدادت النقود فيه ووفرت الثروات ونمى استيراد السلع من أقاليم الجزيرة وخارجها، وأهم ميدان واضح لهذا النمو هو في المنسوجات المنوعة التي كانت تستورد من مختلف أقاليم الدولة، بما في ذلك الأقاليم النائية كخراسان وما وراء النهر.

ولا بد أن نمو التجارة رافقهُ نمو في المعاملات المالية والصرفية وتبادل النقود.

مكانة نظم الحجاز في السُنَّة:

تُجمع كتب أصول الفقه على أن السُنَّة هي المصدر الثاني بعد القرآن في التشريع، ويقصدون بالسنة ما قاله الرسول ﷺ أو فعله أو رآه فأقره أو لم ينكره، وقد توسع بعضهم فاعتبر من السنة أعمال الصحابة أيضاً، ولما كان الرسول ﷺ والصحابة عاشوا حياتهم في الحجاز، فتكون السنة الأوضاع التي كانت سائدة في المدينة بصورة خاصة، مما لم يعدله الرسول ﷺ.

وقد ترددت في الكتب المطالبة باتباع سنة الرسول منذ زمن خلافة عثمان عندما حدث توتر فطالب بعض الناقمين عليه بتطبيق سنة الرسول، وقد كررت

المصادر ذكر مطالبة بعض الفرق الثائرة الخلفاء بتطبيق كتاب الله وسنة نبيه. ومن المعلوم أن هذه المصادر دونت في القرن الثاني الهجري. ولم توضح كتب التاريخ ما أراد المنادون بتطبيق سنة النبي بدعوتهم إلى ذلك، وهي على أي حال تظهر تقدير الناس لسنة النبي واعتبارهم إياها من أسس الحكم السليم. وكانت أقوال الرسول ﷺ وأعماله وأخبار الممارسات التي تجري بمشهد من الصحابة وإقرار منهم تنقل شفاهاً إلى أن أمرَ عمر بن العزيز عندما وُلّي الخلافة بتدوين أحاديث الرسول، ومنذ ذلك الوقت ظهرت عناية خاصة بتدقيق الروايات في أحاديث الرسول ﷺ وضبطها.

واستمر الاهتمام بنقل المعلومات عن ما أقره الصحابة والتابعون وكبار العلماء من الممارسات التي جرت خلال صدر الإسلام، ثم بدىء بتسجيلها في كتب يطلق عليها «المصنفات» و «السنن» و «الآثار» وقد وصلنا بعض المؤلفات الأولى بهذا العنوان، ومن أقدمها وأوسعها مصنف ابن أبي شيبه، ومصنف عبد الرزاق، وفي كل منهما نصوص كثيرة مما شاهده وأقره الرسول ﷺ والصحابة وعلماء التابعين من الأمصار، والمدينة.

وقد اكتسبت المدينة مكانة خاصة في الدولة الإسلامية باعتبارها المركز الذي قامت فيه الدولة الإسلامية في زمن الرسول، والبلد الذي طبق فيه الرسول ﷺ تنظيماته، كما أنها مقام الأولين الذين رافقوا الرسول ﷺ وهم أعرف من غيرهم بتعاليمه. وقد ظلت المدينة مقر الخلافة الراشدة التي جرى في زمنها فتوح أغنى أقاليم الدولة وكان لأهلها أثر في توجيه الخلفاء في وضع التنظيمات التي صارت أساس تنظيم الدولة ومن هذا الباب تكتسب تنظيمات الدولة صفة الشرعية وترفعها إلى مستوى السنة باعتبارها من ممارسات الصحابة التي أقرها المجتمع الإسلامي عند تطبيقها.

ولا ريب في أنه ظهرت في المدينة ممارسات جديدة ظهرت تدريجياً بمشهد من الصحابة والتابعين، وكثير منها بإقرارهم الضمني عن طريق عدم الاحتجاج عليها، وهكذا أدخل مالك بن أنس في موطئه أحكاماً أقرها مروان بن

الحكم، وعبد الملك بن مروان، باعتبارها معترفاً بها عند أهل المدينة. كما أنه ردد في عدة أحكام جملة «والأمر عندنا»، و «المجمع عليه عندنا». «والسنة عندنا». وهو يقصد الممارسات السائدة في المدينة في عصره والتي أقرها أهل المدينة سواء كانت ترجع إلى زمن الرسول أو أنها استجدت بعدئذٍ.

وكانت لعلماء أهل المدينة مكانة خاصة في العالم الإسلامي، فزاد ذلك من اهتمامهم، بالأمور العامة، وخاصة في العبادات والأمور الدينية فكانوا يبدون آراءهم، أي يفتون في القضايا والأفكار الجديدة في المدينة وفي عدد من بلاد العالم الإسلامي.

ظهر خلال هذه الفترة عدد من الفقهاء في مختلف الأمصار الإسلامية وخاصة في البصرة والكوفة وبلاد الشام، ومع أن فقهاء الأمصار هؤلاء نظروا في كثير من القضايا المحلية، إلا أنهم ظلوا يولون علماء المدينة مكانة متميزة كمصدر للمعلومات وخاصة عند الرسول وممارساته، وكذلك كمصدر للعبادات ولكثير من القضايا الفقهية. ويلاحظ أن أبا يوسف وهو من أعظم الفقهاء العراقيين كان من أهل المدينة معظم شيوخه الذين نقل عنهم في كتابه «الخراج» كما أن الموطأ وهو أقدم كتاب فقهي وصلنا، قد نظم في فصول مبوبة، مما يظهر أن مادة الفقه وقضاياه وتنظيمها قد تمت أولياته في المدينة، ومن المعلوم أن تنظيم الموطأ كان الأساس لتنظيم كتب الفقه التالية التي احتفظت بتنظيمات واحدة طيلة العصور الإسلامية. وتجدر الإشارة إلى أن محمد بن الحسن الشيباني وهو من أبرز فقهاء العراق الأولين، درس على مالك بن أنس وروى موطأه كما أن جعفر الصادق، وهو أبرز فقهاء الشيعة الأولين عاش حياته في المدينة.

دور أهل الحجاز في توجيه الثقافة في بغداد:

ولما أسس الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بغداد، اهتم بتقريب أهل المدينة، فاستدعى عدداً منهم إلى بغداد، كما كان منهم عدد من صحابته وقد أنزلهم في الطرف الجنوبي من المدينة المنورة بالقرب من قطائع عدد من

رجال الأسرة العباسية والكتاب والمقربين للخليفة، كما أنه رحب بابن اسحق مؤلف السيرة، وعين على قضاء بغداد بعض علماء أهل الحجاز، وبذلك ثبت مكانة أهل المدينة الذين لا بد أنه كان لهم دور كبير في توجيه بغداد الثقافي في تثبيت اللغة العربية والدين الإسلامي والاهتمام بالحديث النبوي، ولا يخفى أن كلاً من أبي جعفر المنصور، ومحمد المهدي، وهارون الرشيد، زار الحجاز وأغدق على أهل العطاء والهبات، وأظهر احتراماً وتقديراً لعلمائه ورجاله.

ولعله يرجع إلى نفوذه ازدهار الفقه وشموله بالدراسة الأوضاعَ والنظمَ المالية والإدارية، تلك الدراسات التي تتجلى في كتاب (الخراج) لأبي يوسف و(الخراج) ليحيى بن آدم و (الأموال) لابن سلام، ومن تابعهم، وكلها تعتمد على علم أهل المدينة، وهي تقدم صورة خاصة لا تتفق مع الصورة التي يقدمها «الكتاب» في مؤلفاتهم.

ولا بد أنهم كانوا وراء القُوى التي عارضت محاولات المأمون والمعتصم في فرض عقيدة المعتزلة على الناس. وكان اندحار المعتزلة إيذاناً بالابقاء على نفوذهم، وإن كان قد تضاءل. ويلاحظ أن كتب الحديث التي دونت بعد هذه الفترة نظمت على أساليب كتب الفقه تلك الأساليب التي نعتقد أنها ترجع إلى أهل المدينة كما ذكرنا.

إن المكانة المتميزة لسنة الرسول ﷺ كانت من العوامل لاختلاق الأحاديث على الرسول ﷺ وإلى تضخم هذه الأحاديث. ومن المعلوم أن للاختلاق دوافع متعددة منها الدوافع الأخلاقية التي تحض على سلوك معين مستحب ومنها أيضاً الدوافع الاجتماعية كالموقف من الفقر والغنى أو من بعض أصحاب الحرف، سواء في الإشارة إلى حرفهم أو إلى أساليب جباياتهم، وكذلك الدوافع الاقتصادية والإدارية كذم أو مدح بعض النظم الاقتصادية أو أنواع من الضرائب.

غير أن أبرز دوافع الاختلاف هو ما يتصل بالموقف من السلطة الحاكمة

أو فرقة معينة من الفرق السياسية والعقائدية، ومن هذا الصنف الأحاديث الموضوعة على لسان الرسول ﷺ التي تمجد أو تذم أقاليم أو مدناً أو أشخاصاً معينين.

أدى اختلاق الحديث إلى تقديم مادة واسعة ومتشابكة ومتناقضة أحياناً، كالأحاديث التي تؤكد على إباحة أو منع استعمال الحرير، أو التي تمدح أو تذم الفقر أو الغنى، أو حدود إباحة الصرف وتبادل المعادن.

وكثير من هذه الأحاديث المختلفة تعكس الأوضاع والأحوال السائدة في أواخر القرن الأول وفي القرن الثاني. غير أن الاستفادة منها في دراسة التاريخ يتطلب اطلاعاً واسعاً على تاريخ هذه الفترة ومهارة كبيرة في معالجة تلك الأحاديث، كيما يميز بين ما كان سائداً في زمن الرسول وما جد بعد ذلك.

ومن أبرز ما اختص علماء الحجاز بالعناية به هو دراسة سيرة الرسول ﷺ وتدوين أخبارها. وقد بدأت هذه الدراسة منذ أوائل العصر الأموي، وكان أبرز روادها إبان بن عثمان والزهري، ويروى أن من دوافعهم على بحثها هي الأسئلة التي وجهها إليهم بعض الخلفاء الأمويين عن سيرة الرسول ﷺ وكانت هذه الأسئلة مقدمة لدراسات تالية أكثر تفصيلاً اعتمدت على معلومات قدمها أهل الحجاز، ووصلت مستوىً عالياً من السعة والشمول فيما كتبه موسى بن عقبه والزهري، وابن اسحاق والواقدي، وكان كتاب ابن اسحاق المصدر الأساسي الذي نقل النّاس عنه السيرة واحتذوا بتنظيمه ولم يخرجوا عن نطاقه.

ورافقت دراسة السيرة كتابة التاريخ العام للإسلام، فكتب فيه ابن اسحاق والواقدي خاصة، وتميزت كتابتهم بدقة التعبير، والنظرة الشاملة التي تسمو على المبالغات والإقليميات، وشملت كتابتهم تاريخ حوادث الحجاز، وأخبار العالم الإسلامي.

وظهر في الحجاز من أهله شعراء تَميَّزوا بنظم الغزل الرقيق مع وضوح

الأسلوب، والاحتفاظ بالأوزان القديمة، نذكر منهم عمر بن أبي ربيعة، وجميل بثينة، وكثيّر عزّة، والشعراء الهذليين، ونما عندهم شعر الحب العذري.

مكانة علماء الحجاز:

كان أهل الحجاز أبرز حَمَلة مشْعل الإسلام وأفكاره في الدولة الجديدة، فقدم الصحابة في الإسلام، وصلتهم الوثيقة بالرسول ﷺ واطلاعهم على أفكاره، وتعودهم على نمط الحياة التي يدعو إليها، وتمرسهم في قراءة القرآن، يَسّر لهم مكانة متميزة في الأمصار التي كان معظم أهلها ممن تأخر إسلامهم وقلت صلتهم المباشرة بالرسول ﷺ، وأصبح الصحابة البارزون الذين استوطنوا الأمصار، مرجع الناس لمعرفة القرآن الكريم وتوجيهات الإسلام، فكانوا المشاعل التي أنارت للناس السبيل، والمحاور التي دارت عليها الحركة الفكرية في هذه الأمصار منذ أول تأسيسها، ولعل من أبرزهم في البصرة أنس بن مالك، وفي الكوفة عبدالله بن مسعود، وقد اعتز أهل الأمصار بهذه (المشاعل الفكرية) من أعلام الصحابة، ودوّن مؤلفوا كتب الطبقات أسماءهم وأخبار بعضهم. وبوضعهم أسس هذه العلوم، وخاصة علوم القرآن ثم الفقه، ثبتوا التوجهات العلمية في الأمصار، وأكدوا على أهمية أهل الحجاز في التوجيه، وأنموا الاهتمام بمعرفة أحوال الحجاز وأهله لصلته الوثيقة بالإسلام، ومما زاد في أهمية الحجاز وأهله في هذه الفترة المبكرة أن معظم ولاة الأمصار كانوا من أهل الحجاز.

إن التوجه العميق الذي وضعه أهل الحجاز في صدر الإسلام سار عليه العلماء في الأمصار من التابعين ومن تلاهم، وكثير منهم لم يكونوا من أهل الحجاز، ولكن الحجاز ظل يحتفظ بأكبر عدد من رجاله الذين يدرسون العلم، وكانوا المراجع التي يرحل إليها علماء الأمصار للاستزادة من المعرفة، ونظراً لمكانة المدينة في حياة الرسول ونشأة الإسلام، وتشبع أهلها بالنظرة الإسلامية، ورجوع الناس من مختلف الأمصار إليهم فقد أنموا نظرة (إسلامية عالمية)

وخاصة في الفقه الذي كان العلم الثاني بعد علوم القرآن في العناية والنمو، ورافقه أيضاً نمو علم الحديث ودراسة السنة، وبذلك احتفظ علماء الحجاز، وبخاصة مكة والمدينة بمكانة متميّزة في الحركة الفكرية، بما اتسموا به من سعة اطلاع. وإدراك لمثل الإسلام، ونظرة شاملة، زاد من تثبيتها انتقال الخلافة عنهم فأصبحوا متحررين من نفوذ السلطة السياسية، ولا يتهمون بممالأتها، وإنما كانوا المرجع الذي يحترمه الخلفاء فيها.